الباب الأول

١ – التوحيد عقيدة المسلمين

٢ – الإسلام هو الدين العالمى

٣ – الإسلام يحث على العلم

٤ – الدعوة إلى الإسلام فى بلاد الغرب

٥ – الاقتصاد عناصر تفوقه فى شريعة الإسلام

التوحيد
عقيدة الإسلام

عقيدة التوحيد ، أو الوحدانية التى يدين بها المسلمون ، هى أرقى ما وصلت إليه الإنسانية ، وهى الركن الأساسى فى دين الإسلام ، بل هى ركن الأركان فيه ، وهى تتطلب من معتنقها الاعتقاد بأن الله موجود ، وهو وحده الذى يستحق العبادة والتقديس بمعنى أن الطاعة الخالصة والخضوع التام ، لا يكون إلا لله وحده قال الله تعالى معلمًا ومرشدًا ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[1] وفى ذلك إقرار له تعالى بالألوهية والوحدانية .

وهو سبحانه ليس بحادث أو مخلوق قال جل وعلا ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2] وهذا الإله الواحد خلق المخلوقات كلها قال تعالى ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾[3] ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[4] .

وقد تفرد سبحانه بالخلق والتدبير ، وتنزه عن المشاركة فى العزة والسلطان والمماثلة فى الذات والصفات ، فالاتجاه لا يكون إلا إليه ، والخضوع لا يكون إلا له فلا خالق ولا مدبر غيره ولا تخضع القلوب وتتجه

---

(١) سورة الفاتحة : ٥ .

(٢) سورة الحديد : ٣ .

(٣) سورة الأنعام : ١٠٢ .

(٤) سورة الرعد : ١٦ .

إلى شيء سواه ، قال الله تعالى ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1] ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ﴾[2] ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[3] .

كما تنزه أن يكون له ولد كما يزعم أهل الكتاب قال جل وعلا ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[4] .

التوحيد هو أقدم العقائد على هذه الأرض

ذلك أن الناس منذ أقدم عصورهم كانوا يدينون بالتوحيد قال الله تعالى ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[5] ، ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[6] ، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلا اللَّهُ﴾[7] وقد أثبت الدكتور ماكس موللر مكتشف اللغة السنسكريتية أن الناس كانوا فى أقدم عهودهم على عقيدة التوحيد الخالص ، وأن الوثنية عرضت عليهم بفعل رؤسائهم الدينيين بغيًا بينهم[8] فألّهوا غير الله .

١ – فمنهم من ألّه الأشجار والأحجار
٢ – ومنهم من ألّه الملوك والأمراء
٣ – ومنهم من ألّه الآباء والأجداد

---

(١) سورة الأعراف : ٥٤ .
(٢) سورة الأنعام : ١٤ .
(٣) سورة الأنعام : ١٦٤ .
(٤) سورة الإخلاص .
(٥) سورة البقرة : ١٦٣ .
(٦) سورة البقرة : ٢٥٥ .
(٧) سورة محمد : ١٩ .
(٨) كتاب يوم الإسلام للأستاذ أحمد أمين .

٤ – ومنهم من ألَّه المال والجاه والسلطان غافلين عن حقيقة الوحدانية .

ما يذكره الدكتور محمد فؤاد الهاشمى عن عقيدة التوحيد

يقول الدكتور محمد فؤاد الهاشمى – (وقد كان من رجال الدين المسيحى فى مصر قبل إسلامه) – أن نزعة التوحيد لازمت الإنسان منذ نشأته على هذه الأرض ، لكن الكهنة فى كل زمان ومكان كانوا ينحرفون بها إلى التعدد[١] .

الفرق بين المسلمين وبين الغربيين فى مفهوم الألوهية :

يعتقد الغربيون وهم الأوروبيون ومن سار على دربهم من الأمريكيين فى العصور الحديثة أن الله خلق العالم ، ثم عرج إلى السماء ، ولا شأن له به بعد ذلك[٢] وهم فى ذلك يسيرون على خطى أرسطو ، فيلسوف الإغريق فى قوله إن الله خلق العالم ثم تركه يدور على نفسه ، أى تركه للنواميس التى وضعها فيه[٣] .

أما المسلمون فإنهم يعتقدون أن الله يعمل فى العالم دائمًا ، فكل ما يصير ، وكل ما يتجدد هو من عمله المستمر قال الله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[٤] والمسلمون يستعينون بالله دائمًا لأنه هو الذى يغير الظروف التى

(١) كتاب الأديان فى كفة الميزان للدكتور محمد فؤاد الهاشمى .

(٢) كتاب يوم الإسلام للأستاذ أحمد أمين .

(٣) كتاب قضية الإيمان للشيخ نديم الجسر مفتى طرابلس صفحة ٤٦ .

(٤) سورة الأنعام : ٥٩ .

حولهم ، كما يحرك قلوب الناس بما يسرهم ويسوؤهم قال جل وعلا ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1] .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[2]

العلاقة بين الإنسان والمخلوقات الطبيعية فى هذا الكون :

علاقة الإنسان بتلك المخلوقات علاقة متينة فكلها من خلق الله شأنها شأنه هو (الإنسان) لأنه هو أيضًا من خلقه وصنعه سبحانه ، وامتثال الطبيعة أو الكون لما فيه من نظام ، هو امتثال وخضوع للمشيئة الربانية ، التى وضعت النواميس والقوانين ، وهو ما يدعى الإسلام ، أى الخضوع والامتثال لله ، قال جل وعلا : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[3] ، وقال : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[4] .

من هو مالك المشيئة السببية فى هذا الكون :

إن خالق الكون ومالك المشيئة السببية فيه هو الله تعالى ، فهو الذى خلق ودبر القوانين والسنن وأثر فيها ، وتسبيح الأشياء والأكوان هو خضوعها للقوانين التى بثها الله فيها قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[5] .

---

(١) سورة الفاتحة : ٥ .

(٢) سورة الأنفال : ٢٤ .

(٣) سورة آل عمران : ٨٣ .

(٤) سورة فصلت : ١١ .

(٥) سورة الإسراء : ٤٤ .

إذًا ما هو دين الإسلام الذى يعتقه المسلمون ؟ :

لما كان الإسلام يعنى الخضوع والامتثال كما ذكرنا سابقًا فى خضوع الكون لله ونواميسه ، التى وضعها فيه فإنه فى مفهوم الدين ، فإن الإسلام الذى يدين به المسلمون ، يعنى الخضوع لله تعالى بتوحيده والاستسلام له فيما سنه من شرائع وأحكام ، تضمنها الوحى الأعلى الذى نزل على رسول الله محمد ﷺ فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾[1] وقال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾[2] وقال : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾[3] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩ .

(٢) سورة المائدة : ٣ .

(٣) سورة الأنعام : ١٢٥ .

الإسلام
هو الدين العالمى

الأديان ضرورة للبشرية وفطرية بها – هذه حقيقة تاريخية وفكرية ودينية أيضًا فكل إنسان له دين والذين ينكرون الأديان ولا يؤمنون بأى دين منها ، ويحاربون كل الأديان لهم دين جديد – هو ألا يكون لهم دين – ذلك دينهم وتلك عقيدتهم التى يؤمنون بها ..

وبكل أسف دينهم هذا يرفض ويهدم ، ولا يبنى نفسًا ولا يجمع شعبًا على الخير فى أى مكان وزمان .

هل اليهودية دين عالمى ؟ :

وإذا كان دين بنى إسرائيل ، هو أول الأديان الكتابية يقوم على توحيد الإله وتنزيهه فإنه اختص بشعب معين دون سائر شعوب الأرض فهو إذًا ليس الدين الذى يهتدى به الناس كافة ويجدون – فيه شبع حاجتهم الفطرية إلى العقيدة ، لأن بنى إسرائيل كانوا وهم فى مصر من قبل موسى عليه السلام قوم أوثان وتعدد وتجسيم ، فلما انتقلوا إلى عقيدة التوحيد ، لم يتجردوا مما كان عالقًا بأذهانهم فى وثنيتهم القديمة مما كان الناس يلتمسوه فى أربابهم من النقمة وقوة السلطان فالتمسوا فى الإله الواحد أن يختصَّ بهم لا يعبده أحد سواهم ، وأن يغلبهم على من عداهم من الخلق – وأن يمكّن لهم فى أرض الناس ورقابهم – وكانت آفاقهم آفاق الدنيا – فعبدوا فى الإله الواحد مصدر المعاش وسند الملك وجبروت الانتقام ومناط المعاملات بين الأفراد ، وذهبوا إلى حد الاعتقاد بأن الحق والعدل مما شرع الله غير

مطلوبين من الإسرائيلى إلا نحو إسرائيلى مثله أما مع غير الإسرائيلى فلا حق له عندهم ولا شرع ولا عهد ، وغلّفوا هذا المفهوم العجيب فى ثوب الوحى السماوى المعصوم ، حتى لا يجرؤ على تكذيبه أحد – وهذا ما ورد فى سفر التثنية فى قوله : (لا تقرض أخاك بربا فضة أو بربا طعام أو ربا شىء مما يقرض بربا ، للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا ، لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها)[1] .

ويقول سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم ، ينعى على الإسرائيليين ما ابتدعوه فى دينهم : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2] – أى أن هؤلاء الإسرائيليين فى زعمهم عند أكل أموال غيرهم أنه لا إثم ولا حساب ولا عقاب عليهم من الله – يكذبون على الله تعالى عن عمد وعلم بأنهم كاذبون ..

النصرانية وهل هى دعوة عالمية ؟ :

ولما جاءت النصرانية وقد كانت دعوة إلى الله والزهد فى الدنيا والتسامح ، قام بها المسيح ابن مريم عليه السلام رسولاً من الله ، لكنها كانت دعوة محدودة إلى شعب بنى إسرائيل أيضًا فالأمة النصرانية أو المسيحية كما غلب على تسميتها بإنجيلها وكتابها ، مكملة للأمة الإسرائيلية أو اليهودية فى شرائعها ، طبقًا لما ورد عن المسيح فى إنجيل متى بالإصحاح الخامس عدد ١٧ فى قوله : (لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء – ما جئت لأنقض بل لأكمل) وفى قوله : (لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل

(١) سفر التثنية إصحاح ٢٣ عدد ١٩ .

(٢) سورة آل عمران : آية ٧٥ .

الضالة) انظر إنجيل متى إصحاح ١٥ عدد ٢٤ ، ويقول تعالى فى القرآن الكريم عنه : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾[1] .

ولقد أقر الكتاب المسيحيون أن الحواريين وتلاميذ المسيح الأول ، لم يزعموا باستقلال المسيحية عن اليهودية أو بعالميتها ، لكن بولس فقط الذى لم ير المسيح فى حياته ، ولا سمعه ، يبشر الناس وكان من أبرز وأنشط المضطهدين لفئة الحواريين القليلة العدد زعم فجأة أنه اعتنق المسيحية وانضم إلى الحواريين وتلاميذ المسيح – ثم خرج عليهم بتعاليمه التى تنقض عقيدة التوحيد (مثل التثليث وفكرة نزول المسيح وبنوته لله ليكفر بنفسه عن خطيئة البشر) وأبطل الختان ولما رفض الحواريون وتلاميذ المسيح تلك العقائد المضادة لتعاليم المسيح ، قام بولس بنشرها فى الشعوب الوثنية من بلاد الدولة الرومانية حيث تم لها الغلبة على ما عداها من تعاليم بعد ذلك فى ربوع العالم القديم .

يقول فى ذلك الكاتب المسيحى وليم باتون فى كتابه أديان العالم الكبرى ترجمة حبيب سعد : (لم يفقه التلاميذ الأولون فى بادئ الأمر أن الحدود اليهودية الضيقة قد زالت ، ولكن عبقرية بولس قد فطنت إلى تضاعيف الرسالة من هذه الناحية ، وعرف أنها لليهودى والأعجمى والبربرى واليونانى والذكر والأنثى على السواء ، دون تفريق أو تمييز – ويرد على ذلك بأن الذى يطلع على رسائل بولس يتضح له أنه لم يورد دليلاً واحدًا ولا كلمة واحدة تنسب إلى المسيح عن عالمية النصرانية إنما كان تدليله على هذه العالمية من كلامه هو ومن بنات أفكاره) .

---

(١) سورة الصف : ٦ .

ويقول الدكتور أحمد شلبى أستاذ مقارنة الأديان بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة[1] : إن المسيحية الحالية لا تمثل النصرانية الحقيقية بحال فهى ليست الوحى ، الذى نزل من الله على المسيح ، بل هى من وضع بولس – فديانة المسيح عليه السلام جاءت أصلاً لبنى إسرائيل لتكسر حدة جشعهم وتكالبهم على المال ، لذلك دعت إلى الزهد كما دعت إلى التسامح ، لتقضى على روح العداوة والانتقام الذى كان طابع العلاقة بين طوائف الإسرائيليين من كهنة وفريسيين وآسيين ونذريين وغيرهم – ولكن بولس هو الذى نقلها إلى ديانة عالمية (كما قدمنا) ، ونضيف إلى ذلك أنها بانحراف بولس بها إلى هذه العالمية أصبحت بعيدة كل البعد عن مفهومها الذى قصده المسيح فى كل أقواله وبشاراته المعتمدة .

عالمية الإسلام :

ولما كانت العقيدة حاجة روحية لصلاح البشر ، فلا يختص بها فريق من الناس دون باقى البشر لذلك كانت الحاجة ماسة إلى دين عالمى ، يكون دعوة إلى جميع شعوب الأرض قاطبة أبيضها – وأسودها وأحمرها وأصفرها عربيها وعجميها – قال تعالى ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[2] .

هكذا لابد أن يكون الدين الجديد عقيده تصلح لكافة البشر العامة منهم والخاصة تشعر كلا منهم أن له عقيدة يطمئن إليها – وأن هذه العقيدة رباطه بالدنيا والآخرة – بالله وبالإنسان – فالناس أمة واحدة فى

(١) كتاب مقارنة الأديان المسيحية تأليف الدكتور أحمد شلبى .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٢ .

هذا الدين قال تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] – ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[2] – هذا الدين المرموق هو دين كل البشر – وكان الاسلام هو الذى انبرى للنهوض برسالة هذا الدين الذى جمع إليه العقل والقلب جميعًا – وصحح ما تردى الناس فيه من الأخطاء فى تفهم ما سبق من عقائد ورسالات فالناس كانوا بحاجة إلى دين يؤكد وجود الله وأنه خالق الخلق – قال تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[3] ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[4] – ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾[5] ﴿وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[6] وأنه الكامل المتفرد بالكمال له الأسماء الحسنى بيده الأمر وهو على كل شيء قدير حتى تنتهى دعاوى المادة وشبهة تفردها بالوجود ابتداء ويؤكد وحدانية الله توكيدًا يقضى على مزاعم التعدد فى تصور الإله الواحد – قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[7] – ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[8] .

---

(١) سورة الفاتحة : ٢ .
(٢) سورة الأنبياء : ٩٢ .
(٣) سورة آل عمران : ١٩ .
(٤) سورة البقرة : ٢٥٥ .
(٥) سورة الأنعام : ٧٣ .
(٦) سورة الأنعام : ٩٨
(٧) سورة الأعراف : ١٨٠ .
(٨) سورة الأنبياء : ٢٢ .

كما يؤكد هذا الدين التنزيه لله حتى لا ينزلق الناس إلى التجسيم الذى طالما وقعوا فيه بعـد – كل دعـوة للتوحيد بسبب غلبة الحس عليهم – قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1] ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[2] ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾[3] .

والإسلام فى كل ما دعا إليه يتسم بالعالمية إذ أن مبادئه قائمة على العدل والتسامح نحو المسلمين ونحو من سالمهم من أهل الأديان الأخرى ولنقتصر على بعض عناصر العالمية فى الإسلام – على سبيل المثال لا الحصر طبقًا للآتى :

أولاً – وحدانية الإله وإنكاره تعدد الآلهة :

ومفهوم التوحيد فى الإسلام يعنى استغناء الإنسان بالله عن كل ما سوى الله ومن هذا المفهوم يشعر المسلم بالعزة والكرامة والإباء – قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[4] .

ثانيا – المساواة بين بنى آدم دون النظر إلى عقيدته وشريعته :

فالناس متساوون جميعًا فى نظر الإسلام دون نظر إلى جنس أو لون أو جاه أو أى فارق آخر قال تعالى : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[5] .

---

(١) سورة الشورى : ١١ .

(٢) سورة الإخلاص .

(٣) سورة المؤمنون : ٩١ .

(٤) سورة المنافقون : ٨ .

(٥) سورة الحجرات : ١٣ .

ثالثًا – طبيعة الإسلام واتفاقه مع الفطر السليمة :

فطبيعة الإسلام التى أعطته طابع العالمية أنه دين الفطرة وهذه الصفة من أبرز حقائق الإسلام ، فلا تجد فيه نصًّا أو حكما أو قاعدة تتعارض مع فطرة الله التى فطر الناس عليها ، أو تقف منها طبيعة الإنسان موقف التردد أو المعارضة قال تعالى : ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[1] .

وتطبيقًا لهذه الآية اعترف الإسلام بفطرة الإنسان وبطبيعته القائمة على الخير والشر ورغباته – وغرائزه فى الامتلاك والطعام والمرأة ففتح له الطريق إلى الاستجابة لهذه الرغبات بعد أن وضع لها ضوابط وحدود ، ليحمى بها الإنسان نفسه من الفساد والانحراف والتمزق ، ولكل ذلك فإن الإسلام أقام الفطرة حقيقة ثابتة ، لا تستطيع أى قوة أن تغير مجراها – ومن هنا استقرت أصول الدين والأخلاق والقيم فى الإسلام ، فلم ترتبط بالأزمان أو البيئات ولم تصبح نسبية لأنها ارتبطت بالإنسان نفسه – قال تعالى : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي خلَتْ مِنْ قَبلُ ولَنْ تَجِدَ لسنَّةِ للَّهِ تبديلاً﴾[2] . ﴿وَلَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[3] .

رابعًا – إنه دين يتسع للحرية الفكرية العاقلة :

لذلك فهو يساير الثقافات الصحيحة والحضارات النافعة التى تتفتق عنها عقول البشر فى صلاح الحياة ورقيها وتقدمها ، مهما ارتقى العقل ونمت الحياة – بل إنه لفت الأنظار إلى ما فى الكون وإنه سخره لبنى

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) سورة الفتح : ٢٣ .

(٣) سورة فاطر : ٤٣ .

الإنسان من كواكب ونجوم وأنهار وجبال ووديان ، وليستجلبوا ما استطاعوا من خبايا أسراره التى لا تنتهى قال تعالى : ﴿هُو الَّذِى خلَقَ لكُمْ مَا فِى الأَرضِ جميعًا﴾[1] - ﴿وَفِى الأَرضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِى أَنفُسِكم أفلاَ تُبصِرُونَ﴾[2] - ﴿أَلَمْ تَر أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأَخْرَجنَا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفًا أَلوانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بيضٌ وَحُمْرٌ مختلفٌ أَلوانُهَا وغرَابيبُ سُودٌ﴾[3] - ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لكُمُ النُّجُوم لتهتَدُوا بِها فِى ظُلُماتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[4] .

ولذلك قام منهاج الإسلام على أساسين هما :

١ - سنن الله فى الكون والطبيعة .

٢ - سنن الله فى الإنسان والمجتمعات .

خامسًا - التكافل الاجتماعى فى الإسلام :

وهو شعور كل مواطن مسلم بأنه مسئول وحامل لتبعات نفسه وأخيه من المواطنين فكما يسأل عن نفسه يسأل أيضًا عن غيره وهذا التكافل له شعبتان :

١ - إحداهما مادية : وسبيلها مد يد المعونة للمحتاجين ، وإغاثة الملهوفين ، وتفريج كربة المكروبين ، وإشباع الجائعين ، وتأمين الخائفين ، والمساهمة فى إقامة المصالح العامة وقد دعاه القرآن الكريم إلى هذا التعاون

---

(١) سورة البقرة : ٢٩ .

(٢) سورة الذاريات : ٢١ .

(٣) سورة فاطر ٢٧

(٤) سورة الأنعام : ٩٧ .

المادى ، وأطلق عليه عددًا من العناوين المحببة فهو تارة زكاة وجعلها ركنًا من أركان الدين ، وتارة إحسان ، ومرة صدقة وأخرى إنفاق فى سبيل الله بوصفه فضيلة إنسانية .

٢ – وثانيهما شعبية أدبية : وهى تعاون المسلمين المعنوى بالنصح والإرشاد والتوجيه وقد سماه القرآن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قال تعالى : ﴿والْمُؤْمِنُون والْمُؤْمِنَاتُ بعْضُهمْ أولياءُ بعْضٍ يأْمُرُون بِالْمعْرُوفِ وَيَنْهَونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[1] – وقال رسول الله ﷺ : « الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » [أخرجه الإمام مسلم] .

سادسًا – العدل فى الإسلام :

العدل من أهم أهداف إرسال الرسل وإنزال الشرائع والأحكام وقد عُنِى القرآن بمبدأ العدل حفظًا لكيان المجتمعات البشرية كما حذر من الظلم ولو للأعداء الذين يحملون الكراهية ، والبغضاء للمسلمين قال تعالى :

١ – ﴿إِنَّ اللَّهَ يأْمُر بِالعَدْلِ والإِحْسَانِ﴾[2]

٢ – ﴿وَإِذَا قُلْتُم فَاعْدِلُوا﴾[3]

٣ – ﴿لقَدْ أَرسَلْنَا رسُلنَا بالبيِّنات وأَنزلْنَا مَعَهُم الكِتَابَ والْمِيزَانَ لِيَقُومُ النَّاسُ بِالْقِسْط﴾[4]

---

(١) سورة التوبة : ٧١ .

(٢) سورة النحل : ٩٠ .

(٣) سورة الأنعام : ١٥٢ .

(٤) سورة الحديد : ٢٥ .

٤ - ﴿ولاَ يجْرِمنَّكُم شنَآنُ قَوْمٍ علَى ألا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُو أَقْرَبُ للتَّقْوى﴾[١]

٥ - ﴿يأَيُّها الَّذِينَ آمنُوا كُونُوا قوَّامِينَ بِالْقسْطِ شُهَدَاء لِلَّه ولَوْ عَلَى أَنْفُسِكُم أَوِ الوَالِدَيْنِ والأقربين﴾[٢]

٦ - ﴿إِنَّ اللَّهَ يأْمُركُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وإِذَا حَكَمتُم بيْن النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[٣]

سابعًا – وحدة الإنسانية ووحدة العبادة فى الإسلام :

أعلن الإسلام منذ انبلاج نوره وشروق شمسه وحدة الإنسانية فالناس من أب واحد وأم واحدة آدم وحواء ، لذلك كانت وحدتهم فى الإنسانية نتيجة لهدف واحد دون أى تفرقة تعوق سعادة المجتمع ، فأحكامه على جميع أفراده دون نظر إلى غنى أو فقير أو أبيض أو أسود أو شريف أو حقير ، وكما وحد الإسلام بين الناس فى المعاملة وحد بينهم فى العبادة إذ أمرهم أن يعبدوا إلهًا واحدًا هو الخالق الذى لا رب سواه ، وجعل تمايزهم وتفاضلهم بالتقوى قال تعالى : ﴿يَأيُّها النَّاسُ إِنَّا خلقنَاكُمْ من ذَكَرٍ وأُنثَى وَجَعلْنَاكُم شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتعَارَفُوا إِنَّ أَكرَمكُم عِنْد اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٤]

---

(١) سورة المائدة : ٨ .

(٢) سورة النساء : ١٣٥ .

(٣) سورة النساء : ٥٨ .

(٤) سورة الحجرات : ١٣ .

الإسلام يحث على العلم ولا يتعارض معه

لم تعرف البشرية ديناً مثل الإسلام ، عنى بالعلم أبلغ العناية وأتمها ، دعا إليه ورغب فيه وعظم من قدره ونوه بأهله ، وحث على طلبه وتعلمه وتعليمه ، وبيَّن آدابه ووضح آثاره ، ورهب من القعود عنه أو الازورار عن أصحابه ، أو المخالفة لهدايته ، أو الازدراء بأهله قال الله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُون والَّذِين لاَ يَعْلَمُون﴾[1] .

القرآن الكريم يكثر من ذكر كلمة العلم :

فلقد ذكرت كلمة علم في القرآن نكرة ومعرفة (٨٠) ثمانين مرة ، أما مشتقاتها : يعلم ويعلمون وعلام وعليم وغير ذلك من ألفاظ الاشتقاق فقد ذكرت مئات ومئات من المرات[2] .

السنة النبوية تحتفى بالعلم وتشجعه :

ذلك أن السنة النبوية المطهرة تحتوى على أبواب أو كتب حافلة بأبواب العلم .

١ – ففى صحيح البخارى مثلاً نجده يحتوى على كتاب العلم ، وقد اشتمل من الأحاديث المرفوعة على مائة حديث وحديثين .

---

(١) سورة الزمر : ٩ .

(٢) كتاب الرسول والعلم تأليف الدكتور يوسف القرضاوى .

٢ – وفى صحيح مسلم وأبواب الموطأ للإمام مالك وسنن الترمذى وأبى داود والنسائى وابن ماجه كتاب للعلم أو أبواب للعلم تقصر أو تطول .

٣ – وهناك عشرات ومئات أخرى من الأحاديث لها صلة بالعلم ولكنها وضعت فى أقسام أخرى من أبواب تلك الكتب حيث يظهر للحديث الواحد أكثر من دلالة ، ويستفاد منه أكثر من حكم :

(أ) فالحديث الذى دل على اهتمام الرسول ﷺ بالإحصاء الكتابى لعدد الرجال من المسلمين هو فى صحيحى البخارى ومسلم ولم يذكر فى كتاب العلم .

(ب) والحديث الذى دل على إقرار التجربة ونتائجها فى شئون الحياة الدنيا ووكل للناس أمر دنياهم هو فى صحيح مسلم وغيره ولكن لم يوضع فى كتاب العلم .

(جـ) والحديث الذى دل على محاربة الرسول للأمية بتعليم أبناء المسلمين الكتابة عن طريق الأسرى لم يذكره من ذكروه فى أبواب العلم .

(د) والأحاديث التى عنيت بما يتعلق بالطب والتداوى ونحوها لم تذكر فى كتاب العلم بل فى كتاب الطب أو التداوى[1] .

عقيدة الإسلام تقوم على العلم :

لم يخش القرآن الكريم عواقب الدعوة إلى النظر والتفكر والعلم أن تأتى بنتائج تناقض حقائق الإسلام ومسلماته ، لأن فكرة الإسلام أن الحقيقة الدينية لا يمكن أن تناقض الحقيقة العقلية ، فالحق لا ينقض الحق واليقين لا يعارض اليقين لذلك كانت العقيدة فى الإسلام تقوم على العلم لا على

(١) المرجع السابق .

التسليم الأعمى قال الله تعالى : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّه لاَ إِلَه إِلاَ اللَّهُ﴾[1] ، وقال جل وعلا : ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[3] ، بل إن القرآن يعتبر العلم الحق داعية إلى الإيمان ، ودليلا إليه ، قال الله تعالى : ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّه الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾[4] .

فالعلم يتبعه الإيمان تبعية ترتيب بلا تعقيب ، ليعلموا فيؤمنوا ، والإيمان تتبعه حركة القلوب من الإخبات والخشـــوع لله تعالى ، وهكذا يثمر العلم الإيمان ، ويثمر الإيمان الإخبات والتواضع لله رب العالمين .

أى العلوم أولاها وأجدرها بالاهتمام :

علم الدين هو أولى تلك العلوم فبه يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه ويهتدى إلى غايته ويكتشف طريقه ويعلم ما له وما عليه ، ثم بعد ذلك كل علم يكشف عن حقيقة تهدى الناس إلى حق أو تقربهم من خير أو تحقق لهم مصلحة أو تدرأ عنهم مفسدة .

كيف يصف ﷺ فى هديه طالب العلم ؟ :

١ – مما يدل على فضل العلم وبخاصة العلم بالدين قوله ﷺ (من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين)[5] .

---

(١) سورة محمد : ١٩ .

(٢) سورة المائدة : ٩٨ .

(٣) سورة البقرة : ٢٣٥

(٤) سورة الحج : ٥٤ .

(٥) رواه البخارى ومسلم وابن ماجه .

٢ – ويقول : (من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل الله به طريقًا إلى الجنة وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده)[١] .

٣ – ويقول : (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وأن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر)[٢] .

صحابة رسول الله ﷺ يشيدون بالعلم :

فبسبب ما جاء عن العلم فى الأحاديث النبوية بجوار ما جاء فى القرآن الكريم من آيات غزيرة وفيرة ، جعلت الصحابة والتابعين يشيدون بشأن العلم ، وينوهون بقدر العلماء تحريضًا على طلب العلم ، والزيادة منه وتحذيرًا من الجهل وما يجره على أهله من شؤم فى الدنيا والآخرة ، وقد أورد جامع بيان العلم لابن عبد البر شيئًا من ذلك :

١ – فقد سأل رجل ابن عباس عن الجهاد فقال له : ألا أدلك على ما هو خير لك من الجهاد ؟ تبنى مسجدًا تعلم فيه القرآن وسنن النبى ﷺ والفقه فى الدين .

---

(١) رواه مسلم وأصحاب السنن وابن حبان فى صحيحه والحاكم .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والبيهقى والحاكم .

٢ – وقال ابن مسعود (نعم المجلس مجلس تفجر فيه الحكمة وتنشر فيه الرحمة) يعنى بذلك مجلس العلم .

٣ – ومن كلام كثير لمعاذ بن جبل عن العلم قوله : (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشيةٌ وطلبه عبادةٌ ، ومدارسته تسبيحٌ والبحث عنه جهادٌ ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة وهو الأنيس فى الوحدة والصاحب فى الخلوة والدليل على الدين) .

٤ – وقال الحسن البصرى (لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم) أى أنهم بالعلم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية .

٥ – وقال الإمام أحمد بن حنبل (حاجة الإنسان إلى العلم أكثر من حاجته إلى الطعام والشراب) .

العلم لا يتعارض مع الإيمان في نظر الإسلام :

فهو ليس مقابلاً للإيمان فضلاً عن أن يكون معاديًا له ، لذلك لم يعرف الإسلام هذا الصراع بين العلم والإيمان فى تاريخه ، لأن هذه الفكرة لا مجال لها فى تعاليمه لا نصًا ولا روحًا عكس عقيدة أهل الكتاب من النصارى الذين يقولون : إن الإيمان قضية لا علاقة لها بالفكر ، بل هى ضده وأنها لا تدخل فى دائرة العقل والعلم بل هى فوق العقل ، ولهذا كان من الشعارات المرفوعة عندهم (آمن ثم اعلم) أو (اعتقد وأنت أعمى) ، وآخر يقول على لسان الكاهن : (اغمض عينيك ثم اتبعنى)[1] .

وهذا على عكس الإسلام الذى يرفض فى بناء العقيدة التقليد والتبعية ، أو الظن والقرآن الكريم ، يأبى أن تُبنى العقائد إلا على أساس البرهان القائم على النظر العميق ، والتفكير الهادئ ولهذا دعا القرآن إلى التفكير وذلك فى

(١) كتاب الرسول والعلم تأليف الدكتور يوسف القرضاوى المرجع السابق .

قول الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾[1] ، كما صاح فى أصحاب العقائد الباطلة ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2] .

فى أى ظل يريد الإسلام العلم ؟ :

العلم الذى يريده الإسلام أيًّا كان موضوعه ومجال بحثه يريده علمًا فى ظل الإيمان وفى خدمة مثله العليا لا علمًا يؤدى إلى الهلاك أو يؤدى إلى الدمار الشامل مثل علوم الغرب التى نبتت فى أحضان حضارته المادية ، وإلى ذلك أشار القرآن حين قال فى آية نزلت على نبى الإسلام ﷺ فى قوله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾[3] .

فالقرآن لم يطلب مطلق قراءة وإنما طلب قراءة مقيدة بقيد خاص وهو أن تكون (باسم الله) وإذا كانت القراءة باسم الله فقد وجهت إلى **الحق والخير والهداية** لأن الله تعالى هو مصدر هذا كله ، فلذلك نشأ العلم فى الإسلام فى أحضان الدين ، ونشأت المدارس فى صحون المساجد وبدأت الجامعات الإسلامية العريقة ، تحت سقوف الجوامع بل سمى كل منها جامعًا كجامع الأزهر فى القاهرة ، وجامع الزيتونة فى تونس ، وجامع القرويين فى المغرب وغيرها من المساجد والجوامع فى بلاد الإسلام .

وكانت هذه الجوامع أو جامعات ذلك العهد تدرس علوم الدين وعلوم الدنيا معًا وكان كثير من العلماء التجريبيين ، هم فى نفس الوقت علماء دين مثل **القاضى ابن رشد الحفيد** ألف فى الفقه المقارن كتابه

---

(١) سورة سبأ : ٤٦ .

(٢) سورة البقرة : ١١١ .

(٣) سورة العَلَق : ١ .

(بداية المجتهد ونهاية المقتصد) ، وفى نفس الوقت ألف (كتاب الكليات فى الطب) ، وفى الفلك كتاب مختصر كتاب المجسطى لبطليموس التلوذى ، وفى العقائد كتاب فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصـــال **وأيضا الخوارزمى أسس علم الجبر ، ليحل به مشكلات فى الـوصايـا والمواريث والتى هى مـن أبـواب الفقـه الإسلامى والرئيس ابـن سينـا** أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن فقد ألف :

١ - فى **الفلسفة** كتاب الشفاء ، واختصره فى كتاب النجاة ، والإشارات والتنبيهات وكتاب الشفاء ، هو موسوعة فى ثمانية عشر مجلدًا فى العلوم الرياضية والطبيعية وما وراء الطبيعة .

٢ - وتتضمن الموسوعة السابقة مجلدات عن **علوم الدين** والاقتصاد والسياسة والموسيقى .

٣ - كما كتب **فى الطب** وأهم كتبه القانون[1] .

(١) كتاب أثر المدنية الإسلامية فى الحضارة الغربية تأليف الدكتور مختار القاضى من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

الدعوة إلى الإسلام في بلاد الغرب
ومدى مسئولية الدول الأوروبية والأمريكية عنها في زماننا المعاصر

طالعتنا مجلة منار الإسلام الغراء ، في عددها الأول من السنة الثامنة محرم سنة ١٤٠٣ هـ أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٨٢ م بمقال قيم ، للأستاذ قاسم الشاغوري تضمن حوارًا طريفًا ومفيدًا في نفس الوقت بين أحد الأطباء الألمان ، وطبيب مسلم كانا ضمن أحد المؤتمرات الطبية في ألمانيا الغربية منذ عدة سنين .

وقد تناول هذا الحوار ، ضمن ما تناول النقاط الهامة الآتية :

أولاً : محاولة الطبيب المسلم تصحيح المفهوم الأوروبي عن المعتنقين للإسلام بأنهم مسلمون يعبدون الله الواحد الأحد الصمد الذي لا شريك له ولم يلد ولم يولد ، هذا الإله هو خالق الأرض والسماء ، وهو مكون الأكوان ، ولا يوصف بشكل أو لون ، سخر الشمس والقمر وأنزل من السماء ماء ليخرج به نبات الأرض يحيي ويميت ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ليس بجسم مصور ولا بجوهر محدود ولا تأخذه سنة ولا نوم يشير إليه قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[1] . وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾[2] .

---

(١) سورة الإخلاص .

(٢) سورة الرعد : ٣٦ .

ثانيا : إن المسلمين لا يعبدون محمدًا كما يعتقد الأوروبيون ، بل يعبدون رب محمد ﷺ ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ ، عبد من عبيد الله حمله رب العالمين رسالته إلى البشرية جمعاء ، للقضاء على عبادة الأصنام والأوثان والأشخاص وعلى كل إنسان يؤمن بالله رب العالمين أن يؤمن ويشهد لمحمد ﷺ بالرساله كما يؤمن ويشهد بباقى أنبياء الله ورسله يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿قلْ إنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إلَى أنَّما إلَهُكُمْ إلَهٌ وَاحِدٌ﴾[1] .

ثالثًا : إن رسالة الإسلام جاءت للقضاء على الجهالة والضلالة ورفع قيمة الإنسان وتكريمه يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كرَّمنَا بَنى آدَم وحَملْناهم فى البَرِّ والْبَحْرِ وَرزقنَاهُمْ مِن الطَّيِّباتِ وفضَّلْنَاهُم عَلَى كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[2] . وذلك ليشعر البشر كافة أنهم أخوة فى الإنسانية لا فضل لأحد على أحد إلا بالعمل الصالح ، والناس كلهم سواسية ، كأسنان المشط أبيضهم وأسودهم أصفرهم وأحمرهم ، قويهم وضعيفهم ، فقيرهم وغنيهم ، حاكمهم ومحكومهم .

رابعًا : إن المسيح عليه السلام ليس إلا عبدًا لله تعالى كلفه الله بإحدى رسالاته إلى بنى إسرائيل فى فترة من فترات الزمان شأنه شأن من سبقه من الرسل والأنبياء الذين اصطفاهم رب العالمين ، ولقد ظهر التعجب والتساؤل على وجه الطبيب الألمانى ورفاقه حتى لقد سيطر عليهم الصمت بعض الوقت ، ثم قال الطبيب الألمانى لزميله الطبيب المسلم (اسمح لى أن أقول

---

(١) سورة الكهف : ١١٠ .

(٢) سورة الإسراء : ٧٠ .

لك إن المسلمين مجرمون لأنهم مقصرون فى أداء رسالة الإسلام التى هى أصلاً للبشرية جمعاء) .

ولقد صدقت على ذلك المجلة فى تعليقها بنهاية المقال إذ قالت : (لا شك أن ذلك الطبيب الألمانى محق فى دعواه والتقصير الكامل صادق على المسلمين حكومات ودعاة وبيراً من ذلك التقصير جماعات وهبت نفسها لله) .

فهل حقا تقع المسئولية كاملة على المسلمين عن تقصيرهم فى أداء الدعوة إلى الإسلام أم يشاركهم فى جانب منها أولئك الأوروبيون والأمريكيون خصوصًا وأنهم ينعمون فى زماننا المعاصر بحرية العقيدة والبحث على أوسع نطاق ، كما وأنهم بعيدون عن جبروت الكنيسة وسلطانها المطلق والذى ران على أوروبا فى فترة القرون الوسطى وما قبلها حتى بداية عصر النهضة الحديثة .

مدى مسئولية المسلمين عن الدعوة إلى الإسلام :

وبادئ ذى بدء فإنه لامراء بأن هناك مسئولية على المسلمين فى إبلاغ دعوة الإسلام إلى كل شعوب الأرض وإلى كل بقعة ودولة وقرية فى العالم ، لأنه إذا كان رسول الله محمد ﷺ أرسل إلى الناس كافة كما قال تعالى : ﴿ وَما أَرْسلنَاكَ إلا كافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا ونَذِيرًا ﴾[1] وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[2] ، وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ : « كل نبى بعث إلى قومه وإنما بعثت للأحمر والأسود » .

(١) سورة سبأ : ٢٨ .

(٢) سورة الأعراف : ١٥٨ .

كان مقتضى ما سبق أن الإسلام دين الكافة والناس جميعًا مطالبون بالاستجابة لما جاء به النبى ﷺ خصوصًا وأنه لا نبى بعده فهو خاتم النبيين ، وقد قال تعالى فى ذلك : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[1] .

وعلى ذلك كان الإسلام دين الأجيال كلها فهو دين الجيل الذى بعث فيه محمد ﷺ ، ودين الأجيال من بعده حتى يوم الدين .

وإذا كان من المسلم به أنه لا تكليف من غير إعلام ولا ثواب ولا عقاب من غير علم بالرسالة والدعوة إليها طبقًا لما يقرره سبحانه فى محكم آياته : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[2] .

ولما كان الإسلام دينًا عامًّا خالدًا يخاطب الأجيال كلها فلابد من معلمين دائمين ، ولابد من دعوة دينية مستمرة متجددة ، يحملها دعاة الإسلام إلى البشر ليتحقق العلم بهذا الدين الحنيف الذى هو دين الله كما قال جل جلاله : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾[3] .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد بلغ رسالة ربه فى حياته حتى دخل الناس فى دين الله أفواجًا فهل يترك الناس بعد وفاته بورًا لا هادى يهديهم ولا داعى للحق يدعوهم إليه ؟

لا شك أن الله أرحم بعباده من أن يترك الناس من بعد رسوله دون هداة يهدونهم إلى الإسلام فالعقول وحدها لا تكفى فى الهداية ، وقد ضلت

---

(١) سورة الأحزاب : ٤٠ .

(٢) سورة الإسراء : ١٥ .

(٣) سورة آل عمران : ١٩ .

العقول وتاهت الأفهام تحت لجاجة الأهواء والشهوات وعندئذ يتخذ الناس إلههم هواهم .

لذلك كان تكليف النبى تبليغ دعوته تكليفًا لأمته وقد صرحت بذلك آيات القرآن البينات قال تعالى : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1] .

وهذه الآية الكريمة تشير إلى أمور ثلاثة يوضحها فضيلة المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة بالآتى فى كتابه الدعوة إلى الإسلام .

أولها : أن دعوة المؤمنين غيرهم إلى الله تعالى هى من الاتباع للنبى ﷺ ، وأن من تخاذل عن الدعوة لا يعد تابعًا له .

ثانيها : أن تكليف النبى ﷺ تبليغ رسالة ربه تكليف لأمته لا يتخلى عنه مؤمن ولا يتركه مسلم .

ثالثها : أن يكون الداعى له بصر بالأمور يأتيها من طرقها المسلوكة فى رفق ، ليّنا فى دعوته يأتى الأمور من مصادرها ومواردها مؤمنًا بها وعلى بينه من أمرها ، لا تأخذه فى الحق هوادة وليس للباطل عنده إرادة .

وأن الآية الكريمة فى جملتها تدل على أن الإيمان وحده لا يكفى فى اتباع النبى ﷺ بل لابد لكمال الاتباع من الدعوة إلى الإسلام بل عليه لأجل الاتباع أن يسلك سبيله ﷺ فى الدعوة إلى الله فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها .

وجوب الدعوة إلى الإسلام ونوعه :

اتفق أهل العلم على وجوب الدعوة إلى الإسلام وكان ذلك الاتفاق إجماعًا انعقد فى عصر أصحاب النبى ﷺ ثم فى عصر التابعين ، وكون

---

(١) سورة يوسف : ١٠٨ .

الإسلام أنه ينشر نفسه بتعاليمه ويتعرف بعض الناس عليه باجتهادهم لا يمنع من وجوب القيام بتلك الدعوة إلى الإسلام لأنها دعوة إلى الحق ودعوة الحق لازمة ، ووجوبها مستمر دائم لأنه لابد أن يكون للإسلام ترجمان يعرف حقائقه ويعلم بوجوده .

وبالرجوع إلى ما كان يفعله الصحابة ومن بعدهم التابعون ، نجد كل من كان يعتنق الإسلام بعلم غيره من المشركين ممن يتصلون به بصلة الصداقة والقرابة أو الجوار أو اللقاء لأنهم يعلمون أن الإسلام فى حقيقته هداية إلى الحق ، فيدعون إليه كل من هو بعيد عنه والنبى ﷺ ، كان يرسل الدعاة الهداة إلى القبائل النائية فلقد أرسل مصعب بن عمير قبيل الهجرة إلى المدينة يفقه من آمن من الأنصار ، ويحفظهم القرآن ، ويعلمهم الصلاة ويقيمها بينهم ، كما يدعو غير المسلمين إلى الإسلام فغزا أفئدة أهل المدينة بإخلاصه فى الدعوة وسعة علمه وواسع أفقه ، مما دفعهم جميعًا إلى اعتناق الإسلام ، كما أرسل الرسول ﷺ بعد ذلك معاذ بن جبل ، وأبا موسى الأشعرى وعلى بن أبى طالب دعاة للإسلام فى بلاد اليمن ويدعون أهلها إليه .

ومما تقدم يتبين أن الدعوة إلى الإسلام فى العصر النبوى كانت إفرادية يتولاها بهدى النبى ﷺ ، كل مسلم مدرك للحق ويستطيع أن يؤديه وفقًا لما يتسع له بيانه .

وكان النبى ﷺ يتولى الدعوة بنفسه العالية ويرسل أصحابه إلى الجماعات وإلى القبائل ، وقد دفع بعضهم حياته رخيصة فى سبيل تلك الدعوة الغالية عندما كانت بعض القبائل العربية تغدر فتقتلهم أو تسلمهم إلى أعداء الإسلام ليقتلوهم .

لذلك فإن الدعوة إلى الإسلام فرض عينى على كل قادر عليها ، ووجد الفرصة سانحة لبيانها ، وهى فرض كفاية على الجماعة الإسلامية إذ يجب ألا يخلو عصر من الدعوة إلى الإسلام بحيث لو تقاصرت همم الآحاد ، قام من عينتهم الدولة أو تهيأت لهم الأسباب ليقوموا بذلك الواجب المقدس يقول الله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] .

كما يقول تعالى : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[2] . ففى وسط الباطل يجب على المسلم النطق بالحق والدعوة إليه ، واليأس من سماع الحق أو الاستجابة له لا يمنع الدعوة إليه بل يجب العمل بالدعوة بلا يأس فإن اليأس ليس من صفات المؤمنين كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[3] .

أما نصوص الوجوب على الأمة فيشير إليه قوله تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[4] .

ويقول سبحانه : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[5] .

---

(١) سورة النحل : ١٢٥ .

(٢) سورة الحجر : ٩٤ .

(٣) سورة يوسف : ٨٧ .

(٤) سورة آل عمران : ١٠٤ .

(٥) سورة آل عمران : ١١٠ .

مدى مسئولية الغرب الأوروبى والأمريكى بشأن رفضهم دعوة الإسلام :

من الحقائق المسلمة التى لا جدال فيها ولا تحتاج فى ثبوتها إلى دليل أو برهان أن أوروبا بوجه عام ، والدول الغربية الصليبية بوجه خاص ، قد حرصت منذ قرون وقرون على مهاجمة الإسلام ، ذلك أنه لما فشلت حملاتهم العسكرية فى القرون الوسطى فى القضاء على الإسلام وارتدوا على أعقابهم خاسرين عملوا حثيثًا على تشويه صورته وتجريح نبيه ﷺ ومع الأسف الشديد تشاركهم الولايات المتحدة الأمريكية هذا العبث فى زماننا المعاصر مع أنهم لو أمعنوا التفكير السليم بعيدًا عن التعصب لوجدوا فى الإسلام ضالتهم ، فهو دين الفطرة الصافية النقية التى لم يطرأ عليها فساد ، أو انحراف أو تضليل قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1] .

ولقد بلغ من حقد وتعصب أولئك الغربيين الصليبيين أنهم يرون أن الخطر الأكبر هو فى وصول مفاهيم الإسلام السامية إلى عالم الغرب نفسه ، لذلك فهم يعملون جهدهم للحيلولة بين شعوبهم النصرانية وبين الإسلام ، وذلك بحجب محاسنه وتشويه مبادئه والنيل من نبيه لإقناع قومهم بعدم صلاحيته لهم كنظام حياة ، وإذا حاول بعض من بنى قومهم أن ينصفوا الإسلام عمدوا إلى إخراس ألسنتهم وإسكات أصواتهم .

يقول الإنجليزى (جون ويستر) يظهر أن الغرب المسيحى قد تآمر منذ الحروب الصليبية على التزام الصمت تجاه محاسن الإسلام ، وحاول تشويه مبادئه بطريقة متعمدة كلما تحدث عنها .

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

ويقول السير (عبد الله أرشبيلد هاملتون) وهو ممن اعتنقوا الإسلام :

لا يوجد دين أسيء فهمه وكثر الهجوم عليه من الجهلة والمتعصبين مثلما أسيء فهم الإسلام وهوجم ، فبينما نجد الإسلام يرشد الإنسانية إلى الحق والصواب فى حياتها اليومية نجد المسيحية الأوروبية المعاصرة تعلم متبعيها بطريق غير مباشر من الناحية النظرية وبطريق مباشر من الناحية العملية أن يصلوا لله يوم الأحد ويفترسوا عباد الله فى بقية أيام الأسبوع)[1] .

وينعى الفيلوسف الألمانى نتشة على بنى قومه هذا الجحود لمبادئ الإسلام فيقول :

لقد حرمتنا المسيحية من ميراث العبقرية القديمة (يقصد فلسفة الإغريق) ، ثم حرمتنا بعد ذلك من شريعة الإسلام ، لقد ديست بالأقدام تلك المدنية العظيمة فى الأندلس ولماذا ؟

لأنها نشأت من أصول رفيعة ، ومن غرائز شريفة ، نعم من غرائز رجال الإسلام .

إن تلك المدنية الإسلامية لم تتنكر للحياة بل تجاوبت معها وفتحت لها صدرها .

ولقد قاتل الصليبيون تلك المدنية بعد ذلك وكان الأولى بهم أن يسجدوا على التراب شكرًا لله ويأخذوا بها ، وما مدنيتنا فى هذا القرن إلا متخلفة وآلية بجانب مدنية الإسلام فى ذلك الوقت[2] .

ومما يؤكد كراهيتهم وحقدهم على الإسلام أن هذا الغرب الأوروبى والأمريكى ابتدع ما يسمى بالاستشراق إذ جند نفرًا من رجاله فى ميدان

(١) كتاب نظرات على طريق الإسلام لكاتب هذا المقال .

(٢) عن كتاب ظلام من الغرب للشيخ محمد الغزالى .

العلم والمعرفة بحضارة الشرق وثقافته ودينه وجعلهم أداة لطعن الإسلام وتشويه حقائقه وأسلوبهم الأثير أن يُلبسوا الحق بالباطل وأن يمزجوا بشتى الحيل بين بعض المعارف الصحيحة والأكاذيب المفتراة فى سياق يبدو لقليل الدراية أنه بحث علمى محايد ، لا ريب فيه ، وهدفهم الذى يرنون إليه هو تحطيم الإسلام ، لكنهم يختلفون فى أسلوب تحقيق هذا الهدف فمنهم من يغلبه حقده فينثر من كنانته وابلاً من الشتائم ضد نبى الإسلام ﷺ ، وصحابته وشريعته ، ومنهم من يطوى ضغنه ويتحين الفرص المناسبة لإبداء مطاعنه ، ومنهم انطلاقًا لما وقر فى نفسه من تكذيب للنبوة وما يتبعها ، يجعله فى استنتاجه من الوقائع الثابتة ميالا للتحريف ومنهم من تروعه سطوة الحق فى هذا الدين ، فيؤمن بعقله وإن بقى كافرًا بقلبه ، ومنهم أمام فيضان الحقائق الذى يلقاه وهو يدرس الإسلام ، ويتدبر تاريخه يستحى أن يلصق به الاتهامات والخرافات التى لقنت إليه ، ومع ذلك تبدو منه هنات فى تناول الإسلام ورسالته ورسوله (عليه الصلاة والسلام) وعلة ذلك أن أولئك المستشرقين عمومًا يشتغلون لحساب الاستعمار المسيحى الأوروبى والأمريكي ، وأنهم جزء من جيش يهدّ فى بناء الإسلام الشامخ وينقض ما ظل سامقًا دهرًا طويلاً من أمجاد أمته .

بل إن هذا الغرب الصليبى ، لم يكتف بذلك بل أراد النفاذ إلى الفكر الإسلامى وغزو عقيدته النقية الصافية ومفاهيمه الواضحة فى عقر داره بقصد زعزعة المسلمين عن دينهم ، وتزييف عقيدتهم الراسخة التى تحمل طابع الجهاد ، وتدفعهم إلى الدفاع والاستشهاد وهم بذلك يعمدون إلى فصل المسلمين عن جذورهم الثابتة الأصيلة بتشويه تلك الأصول وعزلها عن مصادرها ، وهدم المقومات الأساسية للكيان الفردى والاجتماعى والعقلى للمسلمين ومن شأن هذا أن يفتح الباب إلى الاستسلام

أمام الاستعمار وثقافته وفكره والتأثير فى نفوس المسلمين وزحزحة عقائدهم بما يفتح للتبشير الصليبى طريقًا إلى تحويل بعض ضعاف العقيدة إلى ملاحدة وأتباعٍ يستسيغون الطعن فى الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام بأنواع شتى من الشعوذة العلمية باسم البحث والاستنتاج التحليلى .

ومع ذلك فرغم أحقاد هذا الغرب الصليبى على نبى الإسلام ﷺ وتشويههم صورة الإسلام المشرقة فى نظر شعوبهم ، فإن الإسلام بيسره ومرونته ونقاء عقيدته وخلوها من التعقيد ، واتسامها بالشمول لأنها تشمل الإنسانية جمعاء على مدى الدهور والأزمان ، لذلك عنى بعض رجال الغرب الأوروبى ونفرًا من قادة الفكر المسيحى هناك بأمر الإسلام والبحث فيه وقراءة السيرة العطرة للنبى محمد ﷺ ، وكثير منهم ظل حينا طويلاً وهو يدرس ويحاور ويجادل حتى أدركته العناية الإلهية ، وشملته الهداية الربانية فاعتنق الإسلام عن بصيرة ودافع عنه أمام عشيرته عن بينة لذلك كانوا رواد قومهم وهداة شعوبهم ، نذكر منهم على سبيل المثال الفليسوف الفرنسى المعاصر رينيه جينو الذى ما فتىء بعد التحصيل والدرس فى الإسلام من مصادره الصحيحة أن اعتنقه ، وتسمى باسم عبد الواحد يحيى، وانبرى للدفاع عنه فى المجلات العلمية الفرنسية كما ألف العديد من الكتب منوهًا بتعاليم الإسلام شارحًا أثر ثقافته فى الغرب وفضلها على أوربا[1] .

لكن هل تركته الكنيسة الأوروبية وشأنه فيما يكتبه على الإسلام ؟

لقد رأت الكنيسة فى أوروبا فى رينيه جينو خطرًا يكبر كل خطر سابق عليها فلم تحرم فقط قراءة كتبه بل حرمت حتى الحديث عنه .

(١) كتاب أوروبا والإسلام للدكتور عبد الحليم محمود .

فقل لى بربك بعد ذلك هل تكون الدول الغربية الصليبية بمنأى عن المسئولية بشأن دعوة الإسلام بما تضعه من عقبات فى سبيل وصولها إلى شعوبها ، ثم يكون التقصير الكامل صادقًا على المسلمين حكومات ودعاة وحدهم أمام الإنسانية وأمام الله سبحانه وتعالى .

لكن مما يطمئننا على مسار الدعوة إلى الإسلام وأنها هى الغالبة دائمًا وأن المستقبل للإسلام قوله جل شأنه : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1] .

وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ فيما رواه عنه تميم الدارى « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدَرٍ ولا وبَرٍ إلا دخله هذا الدين ، يعز عزيزًا ويذل ذليلاً عزًّا يعز الله به الإسلام وذلاً يذل به الكفر »[2] .

---

(١) سورة الصف : ٨ – ٩ .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده .

الاقتصاد
عناصر تفوقه فى شريعة الإسلام

مما لا جدال فيه أن الإنسانية استقبلت الإسلام عند ظهور دعوته منذ أربعة عشر قرنًا ، كما يستقبل المسافر المجهود مطلع الصبح الباسم يرى فيه الهداية والرشد ففضلاً عن تميزه فى المقياس الأدبى كدين يحدد العلاقة بين الإنسان وربه على خير وجه ، ويدفع هذه العلاقة فى طريق مستقيم نجده متميزًا فى المقياس المادى أو الاقتصادى .

وهذا يفسر السر فى سرعة انتشار الإسلام وإقبال الأمم المختلفة على اعتناقه وقيام أجيال حوله ، تتعصب له وتدافع عنه ، ذلك أن الإسلام جعل الفرد حرا فيما يكسب ويستثمر دون أن يضر بالمال ، ويتعدى به مصلحة المجتمع الذى يعيش فيه .

والإسلام يقيم نظامه الاجتماعى على أسس من العدالة الشاملة ، وذلك بأن ألف فى بناء المجتمع بين أصول خلقية واقتصادية وسياسية ، ولم يجعلها وحدات منعزلة بل أدمجها بعضها فى بعض بحيث تتكون منها مجموعة متعاونة متماسكة ، تتفاعل فيها هذه الأصول تفاعلاً وثيقًا سعيًا إلى الوفاء بحاجات البشر .

الأصل الأول : اهتمام الإسلام بالملكية الخاصة :

وذلك بأن يكون لمالك المال حق الاستئثار بالانتفاع بما يملكه وحق التصرف فيه طوال حياته وبعد مماته ، كما يحميه من كل اعتداء يقع على

ملكه من الغير أو من السلطة العامة وإذا أرادت الدولة لمصلحة الجماعة أن تنزع شيئًا من ملكه فعليها أن تؤدى عن ذلك المنزوع التعويض العادل له .

وفى هذا يختلف الإسلام عن المذهب الشيوعى الذى لا يعترف بالملكية الخاصة لمصادر الإنتاج ، وإلى هذا القدر يتعارض ذلك المذهب مع غريزة الإنسان الفطرية فى حب التملك ، ويتجاهل حافزا أساسيا فى توجيه النشاط الاقتصادى .

ولكن حق الملكية الذى أقره الإسلام ليس حقًا مطلقًا كما هو الحال فى الاقتصاد الغربى حيث يكون للمالك فى بلاد الغرب الرأسمالى السلطان المطلق فيما يملك بغير قيد عليه ، بل يفرض الإسلام على المالك طائفة من التزامات إيجابية والتزامات سلبية ومصدر هذين النوعين من الالتزامات هو عقيدة الإسلام فى وجدان المسلم والتى تقرر أن كل شىء فى الوجود إنما هو ملك لله تعالى الذى خلقه وخلق الكون كله وسخره له قال الله تعالى :

﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ﴾[1] .

وقال جل وعلا :

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[2] .

فالإنسان فيما لديه من مال إنما هو حائز لوديعة أودعها الله تعالى بين يديه بوصفه خليفة فى أرض الله ، أمره بالانتفاع بهذا المال ومكنه من هذا الانتفاع للوفاء بحاجاته وإصلاح معاشه ، على أن يتفق هذا الانتفاع مع

(١) جزء من الآية : ٣٣ من سورة النور .

(٢) سورة الحديد : ٧ .

مصلحة المجتمع الذى يعيش فيه ، وما دام الإنسان هو المنتفع الوحيد بنعمة هذه الخلافة ، فقد وجب عليه أن ينهض بواجب الشكر لله ، ومن مقتضيات هذا الشكر ، أن يذعن فى إخلاص لالتزامات هذه الخلافة من إيجابية وسلبية .[1]

التزامات مالك المال الإيجابية :

أولاً : على مالك المال أن يوجه نشاطه إلى استثمار ماله بجد على نحو يفى بحاجاته وفاء طيبًا بغير عدوان على مصلحة الجماعة ، وكلما حسُّن مركزه المادى استطاع أن يكون أحسن فى إسلامه وأقدر على أداء فرائضه قال الله تعالى :

﴿هُوَ الَّذِى جعَلَ لكُمُ الأَرضَ ذَلُولاً فامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[2] .

وقال جلا وعلا :

﴿فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3] .

ثانيا : التزام مالك المال أن يؤدى زكاة ماله ، وذلك بتخصيص نصيب سنوى من ماله لمصلحة الطبقات الفقيرة والمحرومة فى المجتمع ، ولمصلحة مصارف الدولة الأخرى التى فصلتها سورة التوبة فى قوله تعالى :

---

(١) الاقتصاد الإسلامى فى تطبيقه على المجتمع المعاصر بحث ألقاه محاضرة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله العربى المستشار القانونى للمؤتمر الإسلامى فى الموسم الثقافى الثانى بالأزهر سنة ١٣٧٩هـ - سنة ١٩٦٠م .

(٢) سورة الملك : ١٥ .

(٣) سورة الجمعة : ١٠ .

﴿إِنَّما الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَراءِ وَالمساكِينِ والعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ والْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1] .

ويبدو أن الزكاة كانت تقوم مقام الضرائب فى العصور الإسلامية الأولى فقد كانت تسهم فى تحقيق العدل الاجتماعى ، وانتشال المدينين من ذل الديون ، ومقاومة الاستقراض بالربا ، وتنشيط الدعوة إلى الإسلام وفضلاً عن ذلك فإن إخراج هذا المال فيه تزكية وتطهير لروح مالك المال ، بما تتيح له من تدريب مستمر على حرمان النفس لمنفعة الغير ، وشفاء لها من سيطرة الشح عليها ، بما تبثه من تراحم بين طبقات المجتمع ، وما تنزع من غل عند الطبقات المحرومة ضد الطبقات الموسرة وبهذا الالتزام ينمو التعاون الإنتاجى فى كيان المجتمع مما يدعم تنمية ثروة الدولة القومية .

كما وأن اقتطاع الزكاة سنويًا من رأس المال يساعد على توزيع الثروة فى ثنايا المجتمع ويحول دون تكدسها فى أيد قليلة وما يلازم هذا التكدس من مساوئ خطيرة .

ثالثًا : الالتزام بالإنفاق فى سبيل الله ، وهذا الالتزام أوسع نطاقًا من التزام الزكاة التى لا تقع إلا على نسبة محدودة من مال المالك .

أما الإنفاق فى سبيل الله فيمتد إلى كل عطاء يخرج من ذمة المالك فى سبيل الخير العام ، وهو موكول إلى محض اختياره وإملاء ضميره ، والقرآن الكريم فى عديد من آياته يرفع فريضة الإنفاق فى سبيل الله إلى مرتبة أعلى الفرائض وألزمها فى تأمين سلامة المجتمع الإسلامى قال الله تعالى :

---

(١) سورة التوبة : ٦٠ .

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾[1] .

فهنا يساوى القرآن بين الإنفاق فى سبيل الله ونجاة الجماعة من الهلاك ، ويجعل الإحجام عن الاضطلاع بهذه الفريضة بمثابة انتحار اختيارى ، يندفع فيه المقصرون نحو حتفهم ، وفى آيات أخرى يساوى القرآن بين واجب الإنفاق فى سبيل الله وواجب بذل النفس فى سبيل الله ، بل إنه يذكر انفاق المال قبل بذل النفس قال تعالى :

﴿ وجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُم وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُم تَعْلَمُونَ ﴾[2] .

التزامات مالك المال السلبية :

أولاً : على مالك المال بل مفروض عليه أن يمتنع عن استعمال ماله على نحو يلحق الأذى أو الضرر بمال الغير ، أو يلحق الأذى والضرر بمصلحة الجماعة ومن هنا كان تحريم الاحتكار لأنه يتعارض مع مصلحة جماعة المسلمين ، قال رسول الله ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار »[3] .

ثانيا : وعلى المالك ألا يبقى ماله عاطلاً بغير استثمار يعود بالنفع على ذاته ، وعلى المجتمع وفى حالة ثبوت امتناعه متعمدًا عن استثمار ماله ، جاز لولى الأمر نزع ماله من يده وتسليمه إلى من يحسن استثماره بالشروط المذكورة فى كتب فقهاء الإسلام المختلفة ، ومن أمثلة ذلك .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٥ .

(٢) جزء من الآية ٤١ من سورة التوبة .

(٣) رواه ابن ماجه والدارقطنى .

أرض زراعية تركها مالكها بغير زرع مدة تتجاوز ثلاث سنوات ففى تركها ضرر على المجتمع ما دامت لم تزرع .

ثالثًا : عند استعمال المالك لثمار ماله يجب عليه أن يمتنع عن الإسراف وعن التقتير قال الله تعالى : ﴿ ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾[1] .

ذلك أن التقتير وما يقترن به من اكتناز المال يحول دون نشاط التداول النقدى الذى هو ضرورى لانتعاش الحياة الاقتصادية .

وأما الإسراف والتبذير فى صرف المال فهو غلو يولد البغضاء فى الطبقات المحرومة ويربى فى نفوسهم سخطًا يدمر فى النهاية تماسك المجتمع ، ولذلك قررت الشريعة جواز الحجر على السفيه – وهو المبذر لماله – حتى تحول دون قيام هذا الخطر .

رابعًا : امتناع مالك المال عن استغلال مكانته المالية فى حيازة نفوذ سياسى فى تصريف شئون الدولة ابتغاء توجيهها إلى خدمة مصالحه المادية ، وتسخير أداة الحكم فى إشباع شهواته الآثمة فى المزيد من الكسب على حساب طبقات المجتمع الأخرى قال الله تعالى :

﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2] .

---

(١) سورة الإسراء : ٢٩ .

(٢) سورة البقرة ١٨٨ .

واحترام هذا الالتزام احترامًا دقيقًا له أعمق الأثر فى صيانة المجتمع الإسلامى من أسباب الانحلال ، وعوامل الانهيار ما يشاهد فى غيره من المجتمعات الغربية ، فهذا قطب من أقطاب المال فى الولايات المتحدة الأمريكية هو (تونسند مارتن) يباهى بسيطرة جماعته رجال المال سيطرة شاملة على شئون الحكم فيقول :

(نحن لا نبالى مَنْ مِنَ الأحزاب تولى الحكم ، ولا مَنْ مِنَ الرؤساء تبوأ مقعد الرياسة ، نحن لسنا رجال سياسة أو رجال فكر ، إنما نحن رجال المال نمتلك أمريكا ولا يدرى إلا الله كيف امتلكناها ، ولكنا نحرص كل الحرص على الاحتفاظ بما امتلكناه ، وسبيلنا إلى ذلك هو إلقاء تأييدنا الضخم ونفوذنا العاتى واتصالاتنا السياسية ، ومن اشتريناهم من أعضاء مجلس الشيوخ ، وأعضاء مجلس النواب ، ومن نستأجره من خطباء شعبيين ، إلقاء كل هذا فى كفة الميزان ضد كل حركة تشريعية ، أو وثبة إصلاحية ، أو حملة انتخابية رياسية تهدد سلامة ما نمتلك)[1] .

خامسًا : الامتناع عن إقراض المال بفائدة ربوية تطبيقًا لقوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾[2] ، فالربا فرع على أصل ، هذا الأصل هو الثمن العادل ، والربا هو فائض القيمة والذى هو حق الغير يأكله المقرِض لتمتعه بمركز مميز على المقترض[3] .

واعتراض الإسلام على هذا النوع من القروض لأنه كسب غير مشروع فعن ابن مسعود قال : « لعن رسول الله ﷺ آكل

(١) الاقتصاد الإسلامى فى تطبيقه على المجتمع المعاصر . المرجع السابق .

(٢) جزء من الآية ٢٧٥ من سورة البقرة .

(٣) عن محاضرة موضوعها وضع الربا فى بناء الاقتصاد القومى بالأزهر سنة ١٣٧٩هـ – سنة ١٩٦٠م . للأستاذ عيسى عبده

الربـا وموكلـه »[1] وزاد أبو داود والترمذى قوله : « وشاهديه وكاتبه » .

الأصل الثانى : من اهتمامات الإسلام : تشريع الإرث الإسلامى :

هذا التشريع يفرض تقسيم تركة المورث بين جميع ذريته ذكورًا وإناثًا وقد يمتد من الذرية المباشرة إلى الذرية التالية ، وإلى ذوى الأرحام تدعيمًا لروابط الأسرة ولا يجيز الإسلام للمورث كما هو جائز فى بعض التشريعات الغربية أن يخص واحدا بتركته كلها كما لا يجيز له أن يحابى وارثًا على حساب وارث آخر ، فهذا النظام الإسلامى يحول دون تكدس الثروة فى أيدى قليلة ، بل يعمل على تفتيت الثروات الضخمة وتجزئة الملكيات الكبيرة مما يساعد على معالجة التفاوت السحيق فى الثروة بين طبقات المجتمع فى الإسلام ، قال الله تعالى :

﴿ لِلرِّجالِ نَصيبٌ مِمَّا تركَ الْوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ وللنِّساء نَصيبٌ مِمَّا تركَ الْوَالِدَانِ والأَقربُونَ مِمَّا قلَّ منْهُ أَوْ كَثُرَ نَصيبًا مَفْرُوضًا ﴾[2] .

ومع ذلك فقد أجاز المشرع الإسلامى للمورث أن يوصى بجانب من تركته لا يتجاوز الثلث لغير ورثته الشرعيين ، فإن لم يترك وارثًا أو موصى له ، فتركته كلها تؤول إلى المجتمع ممثلاً فى بيت المال أو خزينة الدولة .

وتشريع الوصية فى حدود الثلث مروى عن رسول الله ﷺ فى قوله لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : « الثلث والثلث كثير »[3] .

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى .

(٢) سورة النساء : ٧ .

(٣) أخرجه الستة كما ورد فى كتاب تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول جزء ٤ تأليف المحدث عبد الرحمن بن الربيع الشيبانى .

الأصل الثالث : من اهتمامات الإسلام : المنافسة لكن فى نطاق الخير ، والتسابق فى إجادة العمل فى رفق وبر

وبهذا ينأى الإسلام بالمنافسة أن تكون سعيًا إلى الكيد للغير وتعمد إيذائه ويحدوها إلى التعاون المثمر ، فالأمر القرآنى الصادر إلى المسلمين (بالعمل الصالح) هو الأمر المكرر فى ثنايا الآيات القرآنية ، وهو تعبير شامل يشمل البر المباشر من جانب ويشمل من جانب آخر البر غير المباشر ، وهو الذى يتمثل فى كل عمل يدخل فى نطاق أوضاع النشاط الاقتصادى ، ويؤدى التنافس فى إجادته إلى خفض تكاليف الإنتاج أو تحسين وسائل الإنتاج مما يمكن المستهلك من الحصول على مطالبه من السلع أو الخدمات بثمن أقل فهذه حسنة يؤديها المسلم إلى بيئته ، والتنافس فيها بين المسلمين محمود ومطلوب ، غير أن هذا التنافس الذى دعا إليه الإسلام إنما يدعو المسلمين إلى مباشرته فى رفق وبر ويحيطه بنواة خلقية تنأى به عن الكيد للغير أو تعمد إيذائه .

ومن تعاليم الإسلام فى هذا الصدد :

الدين النصيحة ، الدين المعاملة .

فمسلك المسلم فى التعامل مع أخيه المسلم وفى إسدائه النصح له من آداب الإسلام وتعاليمه .

وليس من أخلاق الإسلام ولا من آدابه أن يكيد التاجر المسلم لتاجر آخر مسلم فى السر والعلن ليخرجه من السوق ويستأثر وحده بمغانمها .

كما وأنه من آداب المعاملات التجارية فى الإسلام ، الابتعاد عن الخيانة ، وأن من الخيانة غش الجمهور فى وصف السلعة المبيعة واستدراجه بالكذب فى الإعلان عنها أو الاستفادة من جهل الجمهور ، أو تهاونه لخداعه والغدر به قال الله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[1] .

ويقول رسول الله ﷺ :

« من غشنا فليس منا »[2] .

الأصل الرابع من اهتمامات الإسلام ، العرض والطلب :

فالإسلام يجيز الأخذ بالقانون الاقتصادى فى العرض والطلب كمعيار سليم فى تقدير الثمن السوقى للسلعة ولكن على شرط أن يسرى هذا القانون سريانا تلقائيًا .

أما إذا أقحم الاحتكار فإنه يفسد هذا السريان التلقائى فيختل معياره، وينقلب التعامل السوقى إلى وسيلة لابتزاز أرباح غير مشروعة لفئة المحتكرين إضرارًا بمصلحة الجماعة لذلك حرم الإسلام الاحتكار الخاص فى جميع صوره، وأجاز لولى الأمر تنفيذ هذا التحريم. وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال:

« من احتكر فهو خاطئ »[3] .

وبعد

فهذه هى بعض عناصر الاقتصاد الإسلامى يرى فيها الباحث مدى تفوقه على غيره من النظم الاقتصادية ، ولا أدل على ذلك من أن علماء الاجتماع فى بلاد الغرب فى زماننا المعاصر ، وقد هالهم هذا الفساد الكبير

---

(١) سورة النساء : ١٠٧ .

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى هكذا ورد بكتاب تيسير الوصول إلى جامع الأصول الجزء الأول ، كتاب البيوع المرجع السابق .

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذى .

الذى تغلغل فى مجتمعهم الرأسمالى بسبب النظرة المادية البحتة ، يقترحون على بيئاتهم أن يقدس الناس فيها مثلاً عليا أخرى غير عبادة المال ، وأن يتدربوا تدريبًا متصلاً على الإيمان بهذه المثل والتمسك بها وظاهر أن هذا الرأى من جانب هؤلاء العلماء هو أقرب ما يكون اتساقًا مع موقف الإسلام .

لكنه من حيث قوة نفاذه يعوزه الكثير من فاعلية التدريب النفسى الذى امتاز به التوجيه الإسلامى ، مما يتطلب إيقاظ قوة روحية فى وجدانه تستند إلى وعى دينى حى حتى يأتى هذا الرأى بنتائجه المرجوة .